

ان تكرر هو شيئا وهو خير لكم .

في المزيغ الاخير من نيل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧) ركبنا من دمشق عربية مع صديقين عزيمين قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات الى ان وصلت فرسي ووصل صديق لي آخر راكباً فرسه فركبنا ووجدناك الحبيان الى المدينة . وكان بداً في تلك الساعة الاضراق في الافق والسكون لم يرح مستحوذاً على الارياض والرياض ولم تكن نسمع من بعيد غير قعقة اجراس الطحلين والمكاريين والنجاس الديكة او عواء الكلاب وما كدت اعلو مني مطيتي حتى ترامي الى مسمي صوت مؤذن القابون بنادي « هلموا الى طاعة الله برحمتنا وبرحمة الله » فقلت كلمة حق لو جري العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جعلت جملة تقال ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألقت بمنزل عما فيها من الاسرار النافعة في صلاح المباش والمعاد .

التفت الى النوبة الدمشقية الثفانة اخيرة وفي احب بقعة الى قلبي في الارض وقد كثر في افقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من ايامها البيض والسود . ذكرت النوبة الهويقة ذكرت مطامع البشر وانحطاط اخلاقهم وعقولهم فقاذاً ذلك الى التفكير في شقاء الانسان بالانسان وموت بعض الحياة كل واقترار مئات لاغناء افراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتمت فريق لراحة امة فتمثل لي عيب صنع المولي في خلقه سبحانه لا يبق العالم على حال هو المعز المذل القابض الناسط المغني الفقير يقلب الارض ومن عليها ولا يبرئها الا عباده الصالحون .

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعر بيا ولم تشرق الشمس الا وقد

وكانوا يقدمون أكثرها في سني الخير علفاً للدواب أو يلقونها في الطريق لأن
المعللة في نقلها من محلها إلى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم
باجرة المسار ودابته .

نعم لم أر ارتفاع محسوس في حالة فلاح وادي بردى وإنني يتم له ارتفاع وليس
له طريق يسلك غير ما حفرته أقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته
السيول والرياح منذ قرون . فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا
الوادي ولعل ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة المتخلعة فقد
كانت معظم قراه من قبل تابعة لأفضية بعيدة أما الآن بمدن غدا من مركز
قضاء الزبداني على بضعة ساعات فقد بات يرحى بفضل قائممقامه الفيور
أن تنظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين
قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليقسر للناس العدو والرواح من أيسر
السبل . وما أخال ذلك معذوراً على الحاكم إذا حث أهل كل قرية أن يقوموا
بانفسهم لتمهيد طريقهم أيام إقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما
يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها أو يملعونها بواسطة الموظفين الأمناء
وإن كانت هذه الطريقة لا تخلو من محذور لأنها تؤدي إلى السخرة والسخرة
ممنوعة بنص القانون الأساسي وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة
الفروض العينية على كل حكومة .

وبعد فانه لا وجود في وادي بردى لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح
في البلاد المتعددة وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهملها من
الفلاح إلا أن تأخذ منه لأن تهبي له سبيل الأخذ . فكان قصارها تكثير
الجباية وتوفير الضرائب وأخذ من تربيده للخدمة العسكرية أما امتناع الأهالي

بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة لما أخذ وفتح سبل المواصلات
ورفع علم الامن وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت امور الاتعرفها
لا في وادي بردى فقط بل في جميع اودية البلاد العثمانية ومسهولها وجبالها .
ومن اغرب ما رأيت في وادي بردى ان بعض قراها تحفر القبور لموتاهها
امام الدور فترى حي الاحياء مع حي الاموات وما تدري هل يأتون ذلك
بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة في
مدافنها اذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات او انهم يؤثرون
دفن الموتى امام اعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار
البقاء ويזהدوا في دار الفناء فلا يهتمون باسباب الهلاك والصفاء .

ومما عمت به البلوى في الفلاحين انك ترى القاذورات ايضاً تعمي
العيون وتخنق الانفاس فترى روث البهائم وغائط الادميين وسط الدور
وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمالها . ولولا بقية من عادة النظافة والنظير
ورثها المسلمون بالتسلسل عن آباءهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في
القرى لما بقيت باقية لكان هذا الاقليم ومن حوله .

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت
كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في اسواقنا
الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل
وسوق الحمير . ولهذه الاسواق امثال في اوربا . وبالقرب من السوق تضيق
فوهة الوادي وينتزع العمران ليخرج منه الى منفسح وادي الزبداني . وجبال
السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة
في الغالب في القمم والآكام

ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عت الفخار من اعمال البقاع
 العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه اكثر
 بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من اعمال دمشق .
 وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ اطللنا على عتنا وراينا بيوت القرميد التي
 بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهد في اكثر بيوت سورية .
 وعلمنا ان سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في عتنا تلك الاموال التي
 جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا واجواحتي من لاتحدثهم انفسهم
 بالسكنى ثانية في عتنا ان يظروا غناهم بانشاء الدور المتظمة ليصبح عليهم
 المثل العربي « ابت الدرام الا ان تخرج اعناقها » « ان الفني طويل الذيل
 مياس » او الاثر المشهور « ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده » وليس
 كاليوت ثم عى يسار وتدل على . . . وبعد عتنا مررنا بكامد اللوز فحب
 جتين فللا فعملول من وادي البقاع وفي هذه القرية يتناعد رجل من اهلها
 انزلنا عنده واكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف
 بالتعريض وفي المعارض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول
 الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين
 ان اهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقلما خاصا لهم ينزلونه
 او مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصدون مثلا اهل قرية كذا ولاية كذا من
 شمالي اميركا واهل القرية الفلانية بقصدون جمهوريات الجنوب واخرون
 ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السيفال وبعض الترسفال فكأن
 عدوى الانتقال تسري اليهم بالعشرة فلا يحب المواطن الا ان يقلد مواطنه

في مآتية ومنازعه بل في سقائه وسعاده . وقد اذكرنا هذا بحال العرب في
الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون اقليم كذا ثم لما امتدت
الفتوحات وفتحوا الالندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند
حمص ولذلك كان الجند يدعون كن بلد ينزلونه باسم بلدهم الاول كما تحاول
بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة .

وفي اليوم الثالث قصدنا مشفرة فمررنا بحسرها المحرب الممتد على نهر
البيطاني وانجمدنا قاصدين جزين اول حدود لبنان الى الجنوب . ومشفرة
اقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن
بدبق الجلود للاحذية اشتهار مدينة زحلة اراكثر والمسافة بين مشفرة من
اعمال ولاية سورية وحزبن من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلم قمة
عالية ثم تنحدر في واد عميق .

ومع ان قضاء البقاع من اعمر اقضيه ولاية سورية بزراعتها لحطب تربته
وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومتاخمته
لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبت ارض البقاع من الحبوب والثمار ومع
كثرة الاعبان الذين يملكون فيه المزارع والاراضي الواسعة ومنهم من انشا
فيه حقولا اغودجية حقيقية ورفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا
لها احداث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها بجيب بك مسرق في
عميق ودير صحنش واقامها الاباء اليسوعيون في تغايل - مع كل هذا
العمران المستنجر وما تاخذه النافعة من اموال الالمن كن سنة باسم الطرق
والمابر لا ترى في القضاء طريقا مسلو كما اللهم الا طريق الشام القديم الذي
تركته شركة الديليجانس لما انشي خط بيروت الحديدي . وقيل لنا ان الحكومة

صح عزمها مؤخراً على إنشاء طريق عجلات بين المعاقمة مركز القضاء وبين
مشغرة في غربه وان هذا الطريق وصل او كاد الى قرية عيتبت وعلبه
جسماً لا اسماً كما كثر الطرق التي انشأتها النافعة في الولايات فكانت نفعاً بلا
معنى واسماً بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب
بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

وصف لبنان الطبيعي

٢

كنت في لبنان اشبه بابي زيد السروجي او ابي الفتح الاسكندراني
احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام او عيسى بن هشام يروي كل منهما
لمثل الحريري او بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطرت الى الظهور فيها
لأنجو من مغالب عدو ممازق او جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد
بدون حجاب .

فقد قيل اكنتم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن هذه القاعدة
لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء فتجدهم يحرسون كل الحرص على استطلاع
طالع كل مصطاف بينهم او سانح في جبالهم والوقوف على مقصده ومبلغ
ثروته والدين الذي يدين به . وربما كان سوء المآل الاخير قبل كل شيء
لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل
يشاكلهم في المعتقد . واني لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه
ودولته ان يصرح لهم بهويته وهو مشرد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً
قره قوشياً !

ودعني رفيقي غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت بجدي
 لارفيق لي الاكتابي وفرسي . فانقلب لساعتي من جزين فاهم ديراً القمر
 فاجتزت اليها نائر وعماطور والمختارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة
 عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط اشجار الزيتون وهي غابات غيباء في
 الشوف كما ان شجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن . ودير القمر هو مركز
 الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصة بانيتها الشاهقة كالعروس
 في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطت
 الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان اجمل منظر تقع عليه عين انسان . واهل
 الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقّة وحسن العشرة يتعجبون الى الغرب
 كيف كانت حاله . وفي هذه القصة الى اليوم جامع قديم من القرن
 العاشر بناه احد امراء لبنان ولا يزال الدير يون بحرصون على سلامته فيتعهدونه
 بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة .

وقصة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها شبه بالمدن منها
 بالقرى وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في
 الاطراف . وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة
 زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين الف نسمة واوصل بعضهم نفوسها
 الى خمسة وثلاثين . وتكثر النفوس في حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت
 مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبد الشوير وحصرور
 والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامر
 وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفر ذبيان

والبقرون واهدن والمرمل وأميون وزغرثا وكوسبا وفي غير ذلك من
القصبات التي يعد فيها النفوس بالالوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في المحال التي ترتفع كثيراً عن سطح
البحر ولا يتنذر اليمش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها
وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وستة وخمسين قرية (١)
الابقصر نخيم جميل واسع الأرجاء محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير
المطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضيايح لا يكاد المتجول يمل من
مقصورة حتى ينتقل إلى أخرى وما أسرع وصوله إليها من تلك الطرق
المعبدة وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تنحس به يد الصانع
من بدائم الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده .

معنى لبنان الأبيض وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممها بالثلج في
الشتاء والربيع وبعض الصيف . وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال
الناطقة الديباني :

حتى غدا مثل فصل السيف منصلتاً يقرؤ الاماعز من لبنان والآكام
وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخرايا في الطرابلسي من
المحدثين :

دعوني لقاء في الحرب طافو وارسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جبال قومي فضائي فقد عرفت فضلي معدّ ويعرب
ولا تعتبوني اذ خرجت مغاضباً فمن بعض ما بي ساحل الشام يغضب
وكيف التذاذي ماء دجلة مرقاً وامواه لبنان الذئ واعذب

فمالي وللأيام لادرّ درّها تشرق بي طوراً وطوراً تغرب
وانشد المتنبي في مدح ابي هرون بن عبدالعزيز الاوارجي في قصيدة :
بيني وبين ابي علي مثله شمّ الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء
وقال الجعري :

وتعمدت ان تفلّ ركابي بين لبنان طلياً والسنير
مشرفات على دمشق وقداء رض منها بياض تلك القصور
وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف (١) لبنان : اذا
ما اقيت ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل
منظراً مهيّباً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشملاً في الشتاء
والربيع يجلباب ثلجه الفضي واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قممه
الشامخة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف بيد ان جمال هذا المنظر لا يخلو
من سطوة الشدة فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه
الشامخ لا يقوم في وجهه قائم على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب
هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلومتراً اقرب اجرد
لا تكسوه الخضرة . اوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد .
وقال الاب لامنس : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور ووجهته
من الجنوب الغربي الى الشمالي الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه يقطع بفتة
اما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هياكل شتى من آكام
وبطون وشهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض واذا استثفيت هذه

التفرعات الثانوية والتجمعات النير المنتقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المنبانية التي تفر بها العين وانما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية اقسامه .

ووصف شكاه ايضا فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلومتراً ومعظم انشاءه بين طرابلس والمزمل ٤٦ كيلومتراً فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتي العلويتين انه .

ولقد قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مجده جنوباً صيدا واعمالها وشمالاً طرابلس وكورتها وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت . هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والاصل في التسمية . ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي النيم وجبل الشيخ (حرمون) اي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانيين . وحده القدماء فقالوا : (١) انه جبل مظل على حمص يحجي من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وميساط وقالقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي

(١) الازهري في معجم البلدان لياقوت الحموي

لبنان سبعون لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (٢) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعها احد وفيه يكون الابدال من الصالحين . وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شمالها سمي جبل سنير .

وعلى ذكر الصالحين نقول ان لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة مانصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان احب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب البش ناعم البال وينهل الخبز عليه من اهل الضيعة ويلتزم الامامة والتعليم او ماشاء ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى او يصعد الى جبل لبنان او الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ماشاء وينصرف الى حيث شاء . ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون هو^١ لاء من انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وهذا الجبل من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه وفيه المياه المطردة والضلال الوارفة وقل ما يغلو من التبتل والعبادة . وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف الفواكه ولا يغلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو الف راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ماعدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخاو قرية عن

واحدة او عدة منها ولا يقل دخل الرهبان والاديار فيه عن مئة وخمسين الف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين . وهو نحو ثلاث ايراد لبنان بأسره . وفيه المحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في منارة او مكان منفرد يتعبدون في الخلاه . زرت احداهم في مديرية القاطع فرأيت متوفراً على كرم له هناك حتى جاد واخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة . ولوقام كل امريء بالواجب عليه فسمى للماش سبي هذا الحيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها . وهذه المحابس (١) قديمة في لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك او قبله وبه عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم .

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعا بعمرانه لما بطبيعته فكان عاوقعه — واعلاها ظهر القضيبي علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً واعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكثر ضبابه وكثرة اشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها النهار ذات شأن عظيم في عمران الشام . فمن سفوح لبنان تنبجس اعظم انهار سورية فنهر العاصي الذي يروي اراضي وادي حمص وحماة وانطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر اللباني الذي يروي بلاد صيداء وصور وتنفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسحى بنهر ابي علي ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من

سفع لبنان ونهرا الكلب ويبروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها
ينبجسان من السفع الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض
البقاع هو لبناني المنبع أيضاً . ومن لبنان الشرقي ينبجس الاردن « الشريعة »
كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر ابراهيم

فلسطين في فائده لسورية اشبه بحبال الالب في سويسرا او بنيل مصر
من حيث امتداد المنافع . وللالب والنيل المثل الاعلى . وفي لبنان عدة ينابيع
منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقايع واللبن والعسل والباروك وعين زحلنا
وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين بيت الدين مركز
مصرفية لبنان الصبفي وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد
مفرج قليلاً تنبع عينها على قيد غلوة منها اما المصطافون فيها فيختارون في
الالب النزول باقرب من رأس العين في نزل هناك او خيام لهم يضرّبونها
وسط الحراج المبتوثة على آكام الباروك وجبالها فيوفر لهم بذلك الى جودة
الماء التي مابعدھا جودة فيما اظن - طيب الهواء ونسيم الارز والصنوبر
الليل البليل . ومن الباروك الى عين زحلنا ساعة على الراكب وفي هذه
القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم
الذين ينبعان في ظاهرها وتسريح عيونهم بحمال موقعها وخصب واديها
وحراجها الغيا . وعين الباروك وعين زحلنا على مساماة واحدة في العلو
وماؤهما يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلنا الى عين صوفر ماراً بطريق
السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة او على الراكب وهذه العيون
ينفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقرية

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايل فصلياً فعبدت فبحس فكفيا فبيت
شباب فالشاوية فالغريكة . وهنا قضيت مع صديقي الابراهيم افندي
ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير اياماً رائعة ريثما ركب البحر من
بيروت قاصداً القطر المصري فاوريا . هذا وقد كان سبق لي منذ سنين ان
زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فاكون هذه المرة بما خبرته من
حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقاً بان
اتكلم على الجبل خصوصاً ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط .

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من ادواره عن كونه معة لا حصيئاً كل من ساد
يكوف في الاعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتمب من يسودهم وقد يتعب
به جيرانه من اهل البلدان الاخرى . ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ
معظم المقاطعات السورية استعلالاً وخضوعاً للغرب ولكن ايام الاستقلال
اكثر من غيرها في غيره من اقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستوات
عليه حكومة الايتوريين العربية في عهد الروم . والايثوريون شعب شديد
الشكيمة مولع بالحروب انكفاً من حوران والنجاء بلاده ونزل البقاع فانشأ
له مدينة شاليس او عين جر جعلها داحمة واخذ يشن الغارات على لبنان
ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قمه واخضعه لسلطانه ثم انحدر
الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١) واكثر من كانوا

يتأذون من بأس الايتورين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لانفسهم طولاً ولا حولاً

نعم خضع هذا الجبل للفاطميين واستول على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس اتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتورين فنزل المردة (٢) في الشمال اوائل القرن الاول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فال عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير فخر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن امراءهم الامير بشير الماخطي الثاني ومن امراء لبنان جان بولاد (جنبلط) الذي حكم الشام ستين في القرن العاشر فيما ذكر . وروى التاريخ ان سكان كسروان اخذوا في القرن السادس اوائل القرن السابع للهجرة يطيلون ايدي اعتدائهم على ابناء البعل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الاعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين او الظنينين كما سماهم ابو الفداء وجيوش التنار التي انهالت على هذه البلاد كالسيل العرم ان نجما المسلم من التتري لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح اولئك العصاة فلما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتلاً هائلاً بزعامة جمال الدين افوش الافرم نائب دمشق . والغالب ان سكان كسروان كانوا اذ ذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليمامة .

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

وما زال نواب الشام (١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى اخرجوهم وجعلوا بدلم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولاسيا جيبيل واعمالها من ايدي الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جيبيل قوماً من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال

ولذلك امر حسام الدين لاجين نائب دمشق بان تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولاسيا على عهد الافرنج كما تقدم اذ قضي بقطع كرومهم وتخریب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد ايدي سبا .

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركهم (٣) بثلاثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستكرونها ان يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولي او من امراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية (٤) على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ المواشي والدروب . وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى

(٢) معجم البلدان لياقوت

(٣) تاريخ بيروت

(٤) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت الحجاز بين مصر والشام

لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون الى جمال الدين وزير الدين
ابن علي انه اذا بلغها توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالمساكر الى جهة
كسروان والجرد ان يوجهها اليه يجمعو عهها واسرتيها وان من سبي امرأة منهم
كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار
وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم . وهذه
الفقرات على شدتها لم تصدر عن امراء الشام الا بعد ان طفع كأس صبرهم
من تمرد الكسروانيين

واختلف العلماء في اصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من
الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً
واحداً كما هو حال معظم البلاد فانك ترى كثيرين من اسرات لبنان
المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحران في الداخلية
ولاسيما في القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس
وجيل وبيروت وصيدا قوماً من الفرس يسكنونها . وذكروا ايضاً ان ابا
جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرفة
الامير ارسلان واخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة
بهما فامرهما ان يسكنا في جبال بيروت الحالية من السكان وانعم عليهما
بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان واخذوا يشنون الغارات
على مجاوريهم وفي بعضها احرقوا قرى من كسروان السفلى وثقوى الامراء
الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها .

اما الموارنة فكان اول منشأهم في شمالي سورية في الاغلب ينتسبون الى
قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يخلفون عن الكشاكفة

في امر جوهرى في المعتقات جاوا شمالي لبنان اولاً وما زالوا يمتدنون
ويطردون سكان الجبال الاصليين او ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى
بلغوا الجنوب واحتفظ الروز يلاهم بما فيهم من الشدة والاباء .

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر
لليلاذ لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده اقرب
السابع عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياض مع الصليبيين فلم نلحازا
اليهم ولا للمسلمين اصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من
ممالاة الموارنة للصليبيين ودلائلهم على الطرق ونجدتهم (١) لهم وثباتهم معهم
على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢م ومن اجل هذا
اضطر حكام البلاد ان يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من
طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفرسارون والحديث

وما برح لبنان ينقسم بين امراء المقاطعات يمكنه على النحو الذي
كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى
الليمانيون تارة والقيسيون اخرى والناس معهم في امر مريع ومن التخرجات
القيسية واليانية ما وقع في الربع الاول من القرن السادس عشر لليلاذ بين
الامير فخر الدين المعني اقيسي وجمال الدين الارسلاني اليمني . قال المقرئ
وعشير الشام فرقان قيس وبين لايتفقان قط وفي كل قاييل يثور بعضهم
على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزيكي نسبة الى يزيك جد الشيخ عبد
السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة الى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر

(١) تاريخ الطبري كالدوميس وتاريخ المقاطعة الكسروانية لثوري منصور طنوس الحنوفي

وذلك سنة ١٧٢٩ - ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له اثر كما نشأت احزاب اخرى كالمملوفا والمكاري ومثل هذه الاحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامي والاماء كما فعل الحماديون واحرقوا بلاد جبيل والبترون فخرت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت المداوة بين بني سيفا وبني من مدياً في تخريب الجبل ايضاً .

ومن الوقائع التي لقيت فيها الاحفال تلك الواقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب ان نهب بعض امراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينما كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجوش قرب زحلة وامسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وامر بعض الامراء .

وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنه العاقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة ارض خلدة ثم فتنه برج الغلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى اقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي والياً فلم تطل مدته حتى منعت الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الاولى (١) بقائمقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل النبي وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد عباس الارسلاني

(١) دواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوم

اما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي ايالة صيدا . وكانت قائممقامية النصارى مؤتممة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءي الشوف وجزيرن وقسماً من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في قضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس .

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشوومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً ادارياً بان جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين او تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف او ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق

ولحكومة لبنان موارد اخرى سنوية منها نحو اربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضي الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعديل بثلاثة عشر الف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز في ميزانيته . وفي لبنان الف جندي لبناني بادارة امير الاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها امير الاي بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبل الآن ان تزيد الضرائب قليلاً ليتيسر لها القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا ان معظم الاهلين يفاومونها وفاتهم ان الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم الا الثلث ليرات او اكثر لو فرة الذهب وغلاء الاسعار . وهم يعتبرون ان هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم وينخافون

ان يتدرج الاموال العبيث بقانونهم فيحتل ثنائه مع الزمن من اجل هذا ابى اللبنانيون ان يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والكرم فليس من الانصاف ان يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياض وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من اجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال

غابات لبنان



ليس في لبنان ارض تبلغ مساحتها مائة كيلومتر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات واودية ضيقة ومساييل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم واشجارهم واكثر الاراضي مما يصلح للشجر اكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض في الاكثر . وليس في الأيدي نص قديم يشير الى اصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه اصناف الفواكه والزروع واكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام يجعل لايشبع ولا يقنع . واذا كانت طبيعة ارض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لاتناسبها ارضه ضيقة فيه او تكاد تكون معدومة .

ولكن لم تخل ارض لبنان في زمان من ازمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار الغير المثمرة . وقد اكثر

القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والميكل الثاني الذي جدد في ايام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت ان ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي اقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان او من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب الى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات وقد انشأ بعض ملوك الاسلام اساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترسانتها او ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجيز فيها الجيش الى قبرص ومعهم ام حرام واسمها العميصاء وقبل انه عمر من الارز القاق وتسماثة سفينة وبعد سنين جهز اسطولاً ضخماً من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المذنبين بالصراية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة الى أخرى وهو عطر ارائحة اذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته بيدك ولونه صفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تنبت به الارضة ولا يقل فيه السوس

ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في ابنتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتآليلهم ونصبهم .

والغالب ان الحكومة السافرة (١) القديمة في لبنان كانت تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستلحها لحزبنتها وهي السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه او غرس غيره محله . وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولا سيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا الى الاحتطاب واخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على احد ان يقطعوا اشجاره ويخربوا داره والى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » اي مايتلك من شجر و « الله يخرب زوقه » اي بيته

مثال ذلك ان الامير احمد المعني طرد المشايخ الحاديين المتأولة لما كثر بغيهم في كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع اشجارهم وقد رسم مرة بيدمر (٢) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من امراء الغرب في لبنان وكان في دمشق ان يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلثا من شوف صيدا ليكشف عما فيها من اشجار التوت النافع لعمل الشباب فلم يجده موافقاً وربما احب عدم تصديق اهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذلك العهد اجتهد اهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك ما شاهدته في ايامنا من ان بعض اهل القرى البعيدة

(١) دواني القلوف

(٢) تاريخ بيروت

عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع اشجارهم فراراً من ظلم ملتزمي الاعشار واشتطاطهم في نقاضي العشور عليها اضعافاً مضاعفة ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة اماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابهل واخرى فوق قرية الباروك غير ملنفة وضيقة النمو لكثرة الامطار والتلوج والعواصف في تلك الارحاء وثالثة فوق قرية عين زحلنا وكان احرق اكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها ايام حادثة سنة ستين لتجدد بنحشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشري صنيرة الشجر وعدد شجراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها اصنم اشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى واكبرها شجران دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقد روا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . ولا اثر الآن في سوربة لشجر الارز الا في اعالي سير ببلاد الضنية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند اهله تنوب . ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز او اي كان من شجر الاحتطاب في الاماكن الخالية ولا سيما في القمم والقمم لما انت عشرات من السنين الا . وقد زادت ثروة الجبل بزيادة محموده وكان مع طول الزمن

لابن لبنان من اشجاره مورد آخر غير النوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لايجود في الغالب الا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفتي القدس والزور بتكثير الغابات في الاماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف انها كانت غابات غيباء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فينادى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني ان يفرس عشر شجرات من اصناف الشجر عليه تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا او اكثر والاشجار في بلادنا اكثر نمواً مما هي في اوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فرنست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تهطل الامطار فيها على طريقة منطجة وسيكثر خيرها كلما زادت اشجارها وعسانا تقتدي في سورية بهذا المثال

مند أمن السكان في لبنان على ارزاقهم وانقطعت شأفة ارباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وطلت او كادت السلطة الافراية الذوقية وقلت الاوسنة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلازل الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى واهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة (١) — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية اخذ كل فرد يحسن من حاله فتمت النفوس باستتباب اسباب الراحة واخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون ابناء الجبل على المنازع الدينية وبلقنوتهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم المصرية كما ان الموارنة مازالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف اليه اجبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها ولم يكذب يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجالاته حتى اصبح لديه منها الآن نحو الف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتتهيء سبل التنقل على المصطافين في ربوعه واكثر هذه الطرق في قضاء المتن لانه ظهر لبنان ونقطاته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون

من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواي شمالي لبنان .
وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و ١٥ مدرسة
أكليركية و ٨ مستشفيات و ٢٠٦ من الحراج والغابات و ١٤٧ من معامل
الحرير و ٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفبالج (الشرانق)
سنة ١٩٠٦ - ٢٠٢٧.٣٠ اوقية ومن الزيت ٢٥٤٨٨ اوقية وثمن الحرير
الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان
في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الاستانة
وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء اربعمائة وثلاثون الف
نسمة منهم ٢٥٠ الفاً من الموارنة و ١٦٠ الفاً من الروم و ٣٦ الفاً من
الكاثوليك و ٥٥ الفاً من الدروز و ٣٣ الفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و
١٥٠٠ من البرتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه
خمسائة من اهل البر يعيشون في مضاربهم خارج القرى واكثرهم فقراء
يسكنون الاكف وقد احصى غليلموس السوري في تاريخ الصليبيين
عدد الموارنة في عصره فكانوا اربعين الفاً وما زال عددهم يربو على عدد
وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص وروُدس والقدس ومالطة
ولا يعدان تكون اللغة الغربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شوئون الجبل الى هذا الحد الا ان
نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى اميركا وغيرها من البلاد التي
توهم ان سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا ان يمد يده
ليتناوله مع ان اولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من

الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يشاوي هذا النصب .

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان اول فلاح سوري حاجر الى اميركا او جراً سائر السور بين على الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى وكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبمعدا ولان ابن لبنان اكثر اهل جبال سورية تعليماً ونوراً وافرهم نشاطاً ومضاء وشمماً وادلالاً بل ان مجموع القارئ والكاتبين فيه اوفر من مجموع القارئ والكاتبين في مجموع مدن الشام

واول من دخل اميركا (١) من السور بين الحوري الياس بن القيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨ - ١٦٨٣ واول من دخل اميركا الشمالية في القرن الماضي الحوري فلايبانوس الكفوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ واخذ معه ناصيف الشدودي واول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس الحجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان واول من دخل اميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتنى اثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن اميركا وثلثهم يرجع الى وطنه

(١) دواني القوط اعبيسي افندي اسكندر المملوك

والثلث الأخر يموت . ونظن ان الثلث الأخير مبالغ فيه وان كان عدد
 الهاكبن في المهجر غير قابل . واحصي (١) عدد السوريين المهاجرين الى
 سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة
 وخمسون ألفاً في جمهوريات اميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفاً في اميركا
 الوسطى وعشرة آلاف في استراليا وبعض الجزائر والباقيون في افريقية
 والهند والفيليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفاً نصفهم ذكور
 ونصفهم اناث وربما كان المذكور اكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان
 باقدامهم وذكرائهم الممهود فنزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج الى ايدي عاملة
 ونفوس لا تعرف التعب فانشأوا يعملون ويدخرون ويقترون على انفسهم
 في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين الى اميركا من اهل اوربا مثلاً
 فأب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير
 صمته بمئات من الليرات فكان اول همه ان يعمر له داراً قوراء بالحجر النخيت
 والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر

وكثر تقليد الناس بعضهم لبعض ومنهم من اشترى له ارضاً في بلده
 وطلق الآخر يتجر بما جناه من ذلك الرأس المال القليل اما الافراد الذين
 اغتنوا فعدت ثروتهم بالالوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً على
 المثال العامي « في المطرح الذي فيه ترزق الصق » وهم ان كنت تمدشهم
 انفسهم بالرجوع لايهاأ لهم بال متى عادوا اذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين
 نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلاً وبين

عشقت وبسكتنا وعمشيت وعرنة ومعرونة اما اولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها واكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجي البتة ان يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة .

نعمت الهجرة لبنان واضرته وعندى ان المضار اكثر من المنافع اذ لا يظهر الى العيان في الغالب الا الحسن . فقد يذهب الف مهاجر مثلاً الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد او اثنان فيأخذ الناس بتحدثوث في امرها وينسون اولئك المئات الذين يعملون اربع عشرة ساعة كل يوم في اشق الاعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفون اجرة الطريق التي استلفوها من احد المربين في بلدهم او باعوا في الحصول عليها ارضاً لم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالامراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها .

فان من نظر في الامور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراة ومزارعه التي عمرت بمال اتي به المهاجرون من غير ارض لبنان وسمع بان فلاناً اصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل امير كما يقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يتم ان تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد ان الحال اذا دام على هذا المتوال واموال امير كانت تسرب الى بلادنا تصبح بعد بضع سنين اغني من الامير كان وتنقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم
انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة . قالت لي
عجوز في صليبا وقد سألتها اين رجالكم : « ذهبوا الى اميركا وتركونا هنا
نحرم لهم البيوت التي عمروها وتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية اكبر
من المال لان ما جمعه لم يكنفهم لانهم هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها
ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد اميركا » وقول هذه
العجوز الذي احزنني مفرقا ولا تزال الاذن تردد صداه قد سميت مثله من
كثيرين من اهل لبنان رجال ونساء .

اي حسرة اعظم من ان تتوقع ام في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تضي
الشهور ولا تتناول كتاباً منه او زوجة تنتظر لها منذ سنين هي واولادها
وهو لا يكا . يبعث لهم بنفقتهم فنضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلها
ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هي بمفاحة . واي بلوى اكبر من ان
تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان
شبان الضيعة هاجروا واكثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة
اميركية وزهد في أسرته وقرينته لانه تمدن بزعمه ولا يابق به ان يتزوج الا
من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات
في مثل هذه الحال ويسجل بان اقل سيئه من سيئات الهجرة انقطاع الاله اين
عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومثله
وتوفر اسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خراباً مردودة من
وجوه احدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي

تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارل كان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من اقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى امست اسبانيا افقر بلاد اوربا لان اهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لم والعلوم الرفاعة من شأنهم ان انصرف وجهه اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول اميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على امل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت اكياسهم وجيوبهم وعبايهم قد حال دون تعهد ارضهم واستثمار صناعاتهم . ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي اهله اذا زادوا ضعف ما هم الآن ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد . ولا يشمر بذلك الا ارباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فاصبحت اليوم تساوي ستين على حين ان غلات التوت مثلاً لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدي العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا « مال » عطلاً من العمل .

في امثال العامة « انا امير وانت امير فمن يسوق الخير » حكمة لطيفة

نافعة تصدق على لبناني المهاجر فاذا احب كل فرد من المهاجرين ان يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبق لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وانواع الزينة .

واقعد قال الاقتصاديون ان من جملة ما ساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها انواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد ان يعرف الابن فالامان اشبه بمجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لا يتحدث نفسه ان يقلد رفيقه او يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما يمكنه الحال ولو جرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لاتساعه .

نحن لانجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور اقلها ان البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الافايم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان قتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعسبك والبساع ومرجعيون وصيدا وتناخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحووران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً ما يكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة واقل ما في ذلك من المنافع ان هذه البلاد منهم على ايام قليلة

يستطيعون في استعمارها ان يقضوا معظم أيام السنة في جبالهم .

وقد كتب قائممقام سروج من اعمال حلب منمذمة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضائه وحده محمولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض ارباب الاموال من اللبنانيين وانفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الاشجار واقاموا البيوت لما اتت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من عمر البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الاقضية والاولوية والولايات العثمانية من الخيرات

لانوافي القائلين بالاغتناء بسرعة فان ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الاكثر كما جاء . وانا لنؤثر ان يوجه اللبنانيون ولا سببا في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سورية والعراق والانا ضول ففيها ممتع لهم وفيها لهم مغائم كثيرة لو صبروا على جنبها لكان لهم ولا بنائهم واحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يلى

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لوسعهوا الى تحسينه كعمل الاقمشة والتجارة والحداثة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن اكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من اوربا واميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماسا للصحة والراحة فلو غني اللبنانيون اكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لانهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد

(١) في قرية بيت شباب من مديرية القاطع تصنع اجراس الكنائس وهذه الصناعة لاتعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخل اليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون التوانيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية .

المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة اكثرهم من المصريين فلو فرضنا ان الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مئة وخمسين الف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى ان سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان واعلمه بالمصطافين في قعم لبنان لايتم ان يجلب اليه اناساً من المصطافين من اهل اوربا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح ان النفقة في الجبل اقل مما في جبال الالب وانها لا تبلغ مع اجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد فانا لانفتأ نكرر القول بان من الانفع لابن لبنان ان يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجرون منا الى اميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض اصول التمدن في الملابس والمأكل والمسكن فان الانفع له اليوم ان يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى اضعاف اضعافهم . وسوف يعلمون ان هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الانفع لبنان خاصة وسورية عامة فان ما يقاسيه اللبناني من المغبة والمهانة في الاحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بان لا ينسيه بلاده والعيش بين اهله وجيرته . وقد راحد العارفين منذ ثلاث سنين ان احملة اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة الف ليرة اي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا ان هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية